الحصار الأخير

بقلم صوفى عبدالله

أصيبت بما يشبه الطعنة ، وشعرت بأعز مافى حياتها يحتضر فوقفت جامدة كالتمثال والورقة فى يدهـا تتراقص سطورها أمامها ، ثم تتداخل وتنطمس وشل لسانها والرجل الواقف أمامهـا يحثها على التوقيع ليذهب لقضاء بقيـة مهامه ·· وفى حركة آلية أمسكت بالقلم بين أصابع مرتجفة ووقعت·· نعم وقعت فما كان فى امكانها أن تفعل غير ذلك فقد فوجئت به ·· فوجئت به على غـير انتظـار أو توقع ·· فوجئت به ولم يخطر ببالها يوما ان يحدث هذا ·· · فوجئت به كالصاعقة حينما تنقض على رأس انسان من حيث لا يحتسب ·· كيف يمكن أن يحدث هذا ؟ ·· كلا انها مكيدة دبرت لها ·· فهذا الشخص غير موجود ·· غير موجود على الاطلاق ، وحتى لو كان موجودا لما تجاسر·· فبأى حق يأتى الآن ؟ ! بأى حق يظهر على مسرح حياتها ويطالبها ! أله عندهـا شىء ·· ؟ ألم تكن هـذه الوديعـة هى التى دمر حياتها بسببها ؟ شردها حكم عليها بالذل والهوان لكى تتخلص منها ·· أوقع عليها يمين الطلاق قبـل أن تكتحل عيناه برؤيتها ·· تركهـا عرضة لأعاصير الحياة وتقلبات الزمن ، وهو يعلم تماما ان لامورد لها ·· هل بعد كل ذلك يعود ليطالبها بها ؟

وتسـاندت لترتمى على أول مقعـد صادفها ، وشريط حيـاتها يترى أمام ناظريها فى صور متلاحقة ·· ويدهـا قابضة على الورقة تلوكها بين أصابعهـا دون أن تفطن لحركاتها ·

هاهى فتاةتجرى وتتغامز وتتضاحك وترتمى على حجر أبيها ·· انه يعبدهـا فهى وحيدته ، قره عينه ·· الأمـل الباسم الذى يرى فيه جمال أيامه ·

أمها فقدت بولادتهـا آخر أمل فى ولادة ثانية استؤصل رحمها ، وأصبحت (صفاء) زخر أبويها بعد أن بلغ والدها من السن ما يركن فيه الى حياة الدعة·

لقد تزوج أمها بعد أن تخطى سن الشباب ·· تزوجها بعد أن قضى مـع زوجته الاولى عشرين عاما ، وماتت دون أن تنجب له ذريـة ، كـانت هى أول ذريته ·· عبدها من دون الله ·· أغدق عليها من موارده الضيقة، كان يستدين أحيانا اذا طلبت منه ما تعجز يده عن احضاره ·

وكبرت فى حضن هذا التدليل ٠ ٠ كبرت وكبرمعها الاحساس بالملكية لكل ما تشتهيه ٠٠ لا عسير على والدها لاشىء يقف فى سبيل رغبة تبديها ٠٠ انهـا الملكة المتوجة على عرش بيت رعاياها فيه أب وأم وخادم ٠٠ وعالم زاخر منحولها اذا أرادته ملكا خالصا لما توانى والدها فى تمليكه لها ٠

كان هذا شعورها حينما خرجت من عالمها الضيق من مملكتها الصغيرة ٠ ٠ مملكة البيت والاسرة ٠٠ الى العـالم الزاخر الواسع من حولهـا ٠ ٠ عالم الدراسة ٠

ومن الطبيعى أن تصـطدم عشرات المرات فى اليوم بالاطفال من حولها ٠٠ لقد تعودت أن تطاع ٠٠ أن تكون الآمرة الناهية ٠٠ أن يخضع الجميع لرأيها ، حتىالاطفال الذين كانوا يزورون الاسرة مع أمهاتهم ٠٠ كانوا يطيعونها حينمـا يجلسون للعب معها بلعبها الكثيرة ٠٠

ولكنها هنا لا تطاع ! هنا مثلها مثل الآخرين ، لهم ما لها من حقوق ، وعليها ما عليهم من واجبات ، وهى تعودت غير ذلك ٠٠ تعودت أن يكون لها كل الحقوق ولا تطالب بأى واجبات ٠

وراحت تصرخ وتعولوتضرب الارض بقدميها ، فكان جزاؤها عقابا وحرمانا من اللعب ، فتلجأ الى والدهـا شاكية باكية ، فيحجزها بجانبه عدة أيام ٠٠ وكانت والدتها تحثه على ارسالها والا تلفت ٠٠٠

هل كانت تفكر فى مستقبلها وقتذاك انها راضية هكذا ٠٠ قانعة بقربها من والدها ٠٠ فليذهب مستقبلها الىالجحيم فما الذى ستفعله به اذا كان فى هـذا المستقبل مدرسة وتلاميذ «وامارة» ٠٠ وبهدلة ! هنا هى بجانب والدها ، ملكة متوجة لايشاركها انسان ، ولا ينازعها أطفال «مفاعيص» ٠

وعلى هـذا الاسـاس تعثرت فى دراستها ٠

وسرحت بخاطرها تستعرض زميلاتها اللواتى أصبح منهن طبيبات ومدرسات وأقلهن شانا تكسب قوتهابعرق جبينها متزوجات نعم ٠٠ ولكنهن صاحبـات مهن يعولن عليها اذا خانهن الحظ فى الزواج ٠٠ أما هى ؟

لم يكن الدرس شغلها فى طفولتهـا وصباها ، كان همها ان تثبت نفسها : أن تشعر الأخريات انهن أقل منها شأنا فليس تفوقهن فى الدرس دليلا عـلى انهن يفضلنها ،فهى تستطيع أن تحصل عـلى أى شىء لا يستطعن هن الحصول عليه ٠٠ فى امكانهـا أن تطلب نجوم السماء فيجاب طلبها ٠٠ ليس الدرس ما يهمها فهى فى غنى عنه تماما ٠

كانت تبهرهن بما تلبس من ثياب ، وما تتزين به من حلى ، وكانت تتحـدى أى واحدة منهن أن يكون لها من الحرية مالديها٠٠ وكل يوم تطلع عليهن بجديد وتسرد على مسامعهن اخبار نزهاتها ٠٠ والجديد من ملابسها ٠

وان تنس فلا تنس يوم أن تحـدتها الطالبة (نعمات) «ألفة» الفصل ، والفتاة المتفوقة التى لم تتخل يوما عن أولويتها كيف سخرت منهـا ، وهى فى وسط «الشلة» تقص عليهن آخر مشترياتهـا

لماذا بنعمات تتهكم عليها عن بعد صائحة (مثلك يجب أن تستأصل من المجتمع) ٠

هنا ثارت ثائرتها ، واستعدت عليها الطالبات جميعا ٠٠ الطالبات اللواتى كانت تنفق عليهن عن سعة ، فرحن يعايرنها بفقرها ، وبملابسها البالية ، ويقارن بينها وبين ملابس صفاء الشيك الأنيقة ٠٠ ولم يتركنها حتى بكت ألما مقهورة ، وقد تخلى عنها الجميع ٠ ٠ ٠ هنا انتشت بالانتصار على خصمها اللدود ٠

أين هى الآن نعمات الفتاة الجادة المتفوقة التى لم تكن تملك سوى ثوب واحد ترتديه تحت مريولتها المدرسية طوال العام ٠

لقد أصبحت طبيبة يشار اليها بالبنان وأين هى منها الآن ؟

وزفرت من أعماقها ٠

لولا فرحتها بأن تظفر به لتكبتهن جميعا لما أصبح هذا شأنها ٠

ووالدها ٠٠ لماذا تركها تلهو دون رادع ؟

كان يدللها فعلا ٠٠ ولكنه عارض أشد المعارضة فى زواجها المبكر ، ومنذ بلغت السادسة عشرة والعرسان يتقدمون لها واحدا فى أثر الآخر ٠٠٠ لكن والدها رفضهم جميعا دون استثناء

لماذا ؟ لم تكن متفوقة ، ولم يكن يبشر لها بمستقبل علمى باهر ، أو حتى متوسط ٠٠ كانت فى الثامنة عشرة من عمرها حينما نجحت فى الابتدائية بجهد الجبابرة ، وبمعاونة زمرة من المدرسين الخصوصيين ، وانتقلت الى السنة الاولى الثانوى ، ومع ذلك كان والدها يغريها بشتى المغريات ليدفع بها الى حب الدرس ويزين لها مستقبلها بعد التخرج ، وقد تبوأت أعلى المناصب واصبحت حرة نفسها تتصرف كيفما تشاء دون حاجة لانسان ٠

كان يعلم أنه لن يعيش لها طويلا ، ولا يملك عقارا يورثه لها ليكفيها شر الحاجة ، فلا شىء اذن سوى العلم ، العلم وحده هو الذى يعصمها من شرور كثيرة ٠٠ والزواج الآن ـ حتى ولو كان زواجا طيبا ـ لايضمن أن تستريح مع زوجها وهى الدلوعة المستجابة الطلبات فاذا كان هو يعززها كما لا يستطيع غيره فى الحياة أن يفعل معها ٠٠ فمن أدراه أن الزوج يحذو حذوه ، ولا يذيقها الهوان اذا أرهقته بالمطالب التى اعتادت عليها وأصبحت فى نظرها من المسلمات ٠

ووقعت فى «زين» ٠

ولا تدرى أكان حبا هذا الذى حملته له ، أم رغبة مشبوبة للابت الاحريات بعد أن رأتهن يتدللهن فى حبه !

وسواء كان هذا أو ذاك ، فقد بهرتها وسامته المفرطة ، وشعره الأشقر (المسبسب ؟ وعيناه الزرقاوان الناعستان ٠

رأته وهى فى طريقها الى مدرستها الجديدة ، وهو طالب مزمن بالمدرسة الثانوية التى تجاور مدرستهم ، يرفض باصرار أن يتركها للجامعة لانها مورد رزقه ٠ ٠مورد رزقه عن طريق طالبات المدرسة الثانوية اللواتى يغدقن عليه الهدايا ٠٠ فهو يغيرهن كما يبدل قمصانه المشجرة ذات الالوان الفاقعة

التى يغوى بها الصغيرات فارغات العقل فيقعن فى حبه ٠٠ فيتدلل عليهن ٠ ٠ فيطلبن وده بالهـدايا ويصبح الآمر الناهى ٠

ثم يأتى الهجر بعد الوصال، فتعرف الفتاة معنى البكاء والسهد وسهر الليالى والاقدام على الانتحار ٠٠ ولكن زين المدلل يكون قد استنفد كل ما يريد من فتاته حتى آخر قرش معها ، وغير بعيد أن تبيع أسورتها او خاتمها أو ساعتها ، لتشترى بثمنها هدايا لزين ليرضى عنها ، ولا بأس من أن تقسم لمامى أنها ضاعت ، ومامى لاتجسر بالتالى أن تخبر الوالد الحمش لئلا يقطم رقبتها ٠

وزين يستطيع أن يعرف كل مايتعلق بالفتاة قبل أن ينصب شباكه حولها ٠٠ ووجد صفاء صيد « صقع » وهنا راح يتودد اليها ويغازلها بعينيه الناعستين ، وهى رأت فيه انتصارا آخر على رفيقات درسها ٠

ودون أى تفكير أقدمت على المغامرة ، ولم تكن المغامرة كلها كبتا للزميلات ، بل ان حسنه بهرها ، وقمصانه الفاقعة الألوان من بنبه مسخسخ الى احمر فاقع الى لبنى مزهره ٠٠ كانت تضفى عليه طابعا مميزا عن كل من حوله ٠

وتململت صفاء فى جلستها ، ثم قامت تقطع البهو الصغير ذهابا وايابا كالطير الجريح ، وهى تفرك بين أصابعها فى عنف تلك الورقة التى سلمت اليها من لحظة ٠

ماذا يريد منها الآن ؟ ماذا يريد بعد عشر سنوات من انقطاع أخباره ٠

كان شؤما ذلك اليوم الذى خطت فيه بقدمها الى الحديقة التى تواعدا على اللقاء فيها ٠٠ لم تكن أقدمت على مثل هذه الفعلة النكراء حتى بلوغها هذه السن ، ولا تدرى كيف استطاع أن يؤثر عليها حتى استدرجها الى لقائه ٠

كان لطيف الحديث ، بارعا فى اختيار كلماته ، جعلها تنسى نفسها ، سحرها بعذب ألفاظه ، وكان فى استطاعته أن يأمرها فتجىء بعد ذلك صاغرة اليه ، ولكنه ترك لها حرية الاختيار ليلتذ بحيرتها وبصراعها بينها وبين نفسها ثم بهزيمتها أخيرا وموافقتها ، وهكذا لم تفارقه الا بعد أن ربطت نفسها بموعد آخر تلقاه فيه ٠

ومع ذلك كم راجعت نفسها ، وكم من ليلة قضتها مسهدة تستعرض موقفها بيد أن كلماته المعسولة كانت ترن فى أذنها كأنغام الموسيقى الشجية ، وهى تراه بعين الخيال ، بقامته الفارعة ٠٠ وجماله الساحر ٠

وفى المرات التالية طلب منها أشياء بدت غريبة منفرة ٠٠ فرفضتها باصرار ولم يستطع صوته الساحر ، ولا عذوبة ألفاظه أن تثنيها عن عزمها ٠٠ بل وقررت أن تقطع علاقتها به ٠

وتنهدت بحرقة وغمغمت :

ـ ليتنى فعلت ٠

ولكنه لم يتركها ٠٠ راح يلح أن يتزوجها ٠

وصعقت ٠٠ تتزوج منه هو قبل أن ينهى تعليمه ؟ وكيف يعيشان ؟

وأخذ يزين لها حياة الزواج ، وانه يملك عقارا يستطيع أن ينفق منه حتى

ينتهى من علومه ويحظى بالوظيفة المنشودة ، وهى ؟ هل تقطع تعليمها ؟ هل تخذل والدها ؟

فقال وهو يحتضنها اليه :

ـ الفتاة ليس لها سوى زوجها ، أما العمل فهو كلام فارغ مادامت فى كنف زوج ينفق عليها عن سعة ويهيىء لها الحياة الرغدة ·

وأرادت أن تقاوم ، ولكن لذة عناقه أذابت كل مقاومة لها ·· ورضيت أن تتزوجه وتهرب معه الى مكان بعيد حتى تهدأ الحالة بعد ان يرى والدها نفسه أمام الامر الواقع فيغفر لها ويعودان بعد أن يصفح عنها ليعيشا مع والدها حتى ينهى تعليمه ·· عليها فقط أن تكتب له خطابا تتركه فى مكان ظاهر حتى لايزعجه غيابها فيلجأ الى البوليس الامر الذى يريدان تحاشيه بشتى الطرق تجنبا للفضائح ·

وتركته على لقاء سريع فى صباح اليوم التالى ·

وأمضت الليل بطوله تنمق فى الخطاب وتعيد كتابته عشرات المرات لتجعله خفيف الوقع على والدها المسكين ولمت بعض ثيابها الضرورية فى حقيبة مدرستها ، فقد قدرت أن غيابها لن يطول ، وانها لابد عائدة بعد أيام ·

وكعادتها فى الصباح قبلت والدها ووالدتها قبل النزول الى المدرسة وتأبطت حقيبتها بعد أن وضعت الخطاب فى أبرز مكان بحجرتها ·

وكان فى انتظارها ·· كان يعلم انها لن ترضى بالذهاب معه الى أى مكان قبل أن يعقد عليها ·

وجلسا فى مكان عام يتناولان بعض المرطبات وما ان وافت الساعة العاشرة حتى توجها معا الى المأذون ، وعقد لهما · وأعطاها صورة من العقد ، واخذ هو صورة فى جيبه ·

أكان يحبها فعلا ؟ ·· لماذا اذن أقدم على كل هذه الاجراءات ان لم يكن يحبها؟

وركبا القطار الى الاسكندرية ليقضيا أياما من العسل حتى يصفح عنها والدها ·

وعاشت معه أياما كانها تعيش فى الجنة ·

ولم يمض أسبوع ، وذات صباح فتحت الصحيفة وهى على مائدة الافطار ـ كما تفعل كل صباح ـ تطوف بعينيها على المكان الذى يمكن أن تجد فيه نداء من والدها يحثها على الرجوع اليه ونسيان ما بدر منها ·

ولكنها بدلا من أن ترى النداء وجدت صورة والدها وتحتها نعيه ·

مات المسكين ، لم يتحمل الصدمة · قتلته ·· هيأ لها الحياة فسلبته اياها ·

وراحت تبكيه بحرقة ، وزين واقف أمامها فى شرود ·

ولم تستطع أن تعود الى البيت ·

كيف تقابل والدتها ؟ كيف تواجه الناس من حولها ؟ سيشيرون اليها بأصابعهم وان لم يكن فبعيونهم ·

هاهى قاتلة أبيها ·

لابد أن تبقى فى الاسكندرية حتى تهدأ الحالة ·

وأسقط في يده ٠

ماذا يفعل ولم يبق معه من النقود مايكفيهما ٠

واتاه الفرج من حيث لا يحتسب ٠

أرسلت والدتها نداء في الجرائد الثلاث تناشدها العودة وقد صفحت عن جميع تصرفاتها ٠

وعادا ٠٠٠

وتكشف لها زين بكل صوره البشعة ترك والدتها تنفق عليهما من المعاش الضئيل الذى تركه لها والدها ٠٠ وعاد هو الى حياة اللهو والعبث مع الفتيات كما كان يفعل قبل الزواج ٠

وسألته بعد أن طفح بها الكيل ٠

ـ كيف يرضى على كرامته أن تنفق عليه وعلى زوجته امرأة لامورد لها الا القليل الذى تتقاضاه معاشا ٠

فأجابها في تبلد :

ـ انه حر فيما يفعل ، وانها تعيش مع امها ، فاذا لم تنفق عليها أمها عن طيب خاطر فمن تنتظر ينفق عليها وايراداته لم تصله للآن ؟

وتضرب كفا بكف ٠٠ وتحس بالعرق يتصبب على جبينها وهى تتذكر يوم أخبرته أنها حامل ٠

وصل الامر به أن ضربها حينما رفضت باصرار أن تذهب معه الى طبيب ليجهضها ٠

لايمكن أن تتخلص من وليدها ٠ ٠ كان الموت أهون عليها من أن تفكر في الخلاص من جنينها ٠

ان تفكيرها في الزواج كان للانجاب قبل أن يكون للحب ، لأحد يدرى كيف تعبد الاطفال ٠٠ ولا هو زين يستطيع أن يحس بحنينها ولهفتها على الاطفال٠

ورفضت ٠٠ رفضت رغم فقدانه أعصابه ٠٠ فقد بدأ يلعنها ويلعن اليوم الشؤم الذى عرفها فيه ٠

ولم تتكلم ، تركته يخرج كل ما في جعبته ٠٠ ثم أدارت له ظهرها وخرجت من الحجرة ، وخرج هو الى الطريق ٠

ومنذ ذلك اليوم لم تقع عينها عليه ٠

ترك البلاد وسافر ٠٠

الى أين ؟ لاتدرى لم يكن لديه عقار ، ولا أهل له ، ولا أقارب ، ولم تقف له على أثر ٠

كان الأثر الوحيد الذى تركه لها ورقة طلاقها ٠٠ وصلتها على يد شيخ الحارة في مساء اليوم نفسه ٠

وعاشت في حزن مقيم ، حزن على حياتها التى اضاعتها هدرا ، وحزن على والدها الذى قتلته برعونة تصرفاتها ٠

وولدت ابنتها ايمان نسخة مصغرة من أبيها ، طفلة آية في الروعة والجمال ٠

وعاشت لتربيها ، عاشت لها طوال العشر سنوات ، أنكرت نفسها تماما أوصدت قلبها وأغمضت عينيها عن كل متع الحياة ٠

أعادت حب والدها لها في حبها لايمان ، ولكن بدون تدليل ٠

كانت أمها تنظر اليها وتتعجب ٠٠ كيف تتحمل المذلة : الفقر والجوع ،

وحياة الذل كما لايتحملها الرجال ..
واخيرا وبعد عشر سنوات من الذل والحاجة، فتح الله عليهم على صورة ارث آل لأمها بعد موت عمة لأمها عجوز عانس .

وبعد عشر سنوات أيضا عاد «زين» يطالب بضم ابنته اليه .

هذا الذى أراد أن يزهق روحها قبل أن ترى الحياة ، يأتى الآن ليأخذها صبية يانعة كالزهرة .

أين كان طوال هذه المدة ؟ ولماذا يطلبها الآن ؟ ما الذى ارتكبته فى حقه حتى عاملها هذه المعاملة ثم أخيرا يضن عليها بحضانة ابنتها ؟ أليست هذه الابنة هى التى لفظها بسببها ، أم انها تعلة اتخذها ليهرب من مسئولياته كلها !

انها لم تطالبه بشىء ، ولن تطالبه مدى الحياة ، فقط ليبتعد عنها ويترك لها وحيدتها ، أملها كله والنسمة التى تتنفسها وتحيا بها .

أو يريد أن يرجع اليها وهو يتعلل بايمان .

واستنكرت الحنين الذى يزحف الى قلبها بعد الذى اقترفه فى حقها .

لتقتلن نفسها ، لتزهق روحها .. قبل أن تفكر فى الصفح عنه .

ولكن كيف تثنيه عن أخذ ايمان .. كيف تثبت للمحكمة تصرفاته وسبب طلاقه لها .

وتهاوت على المقعد مرة ثانية ·

ودخلت ايمان فى يد جدتها عائدة من المدرسة ، وارتمت على أمها تقبلها ·· واحتضنتها صفاء فى يأس موجع ·

اكتب عليهـــا أن تشرب المر حتى الثمـــالة ؟ ألم تكف السنوات العشر تكفيرا عمـــا ارتكبت ·· يستطيع أن يسلبها حياتها أما ايمان فالسماء أقرب اليه من أن ينال شعرة من رأسها ·

وهدتها أمها أن يقيما محاميا للدفاع عنها ·

وراودتها نفسهاعلى الصلح اكراما لايمان لكنها تراجعت ، تركت المحامى يسير فى اجراءاته ويعرض عليـــه أى شىء فى سبيل ترك ايمان لها ·

وفى المساء أخبرها المحامى انه يريد خمسمائة جنيه مقابل أن يتخلى لها عن ابنته ·

وصعقت · ابنته ؟ منذ متى عرف ان له ابنة ؟ ومن أين لى بهذا المبلغ ؟ ·

ـ يقول المحامى :

ـ يقول من الميراث الذى آل لوالدتك وسيكتب لك تنـــازلا كليـــا ولن ترى وجهه بعد الآن ·

وهزت رأســـها فى أسى لاتستطيع حلاوة العالم كله أن تمحوه ، ولم تدر بماذا تجيب ·· ومرة أخرى رنت فى أذنيها كلمة أمها التى ترددها على مسمعها دائما كلما رأت (حالها المائل) ·

ـ من يزرع الريح يحصد الزوابع ·